محبّة الله ومحبّة القريب
السامريّ الصالح (لو ١٠: ٢٥-٣٧)

د. جوني عوّاد
كلّيّة اللاهوت للشرق الأدنى – بيروت

مقدّمة

الأيّام البيبليّة لهذا العام هي تحت عنوان "محبّة الله ومحبّة القريب"، وللحديث عن هذا الموضوع اخترت كمدخل واحد من أجمل الأمثال التي علّم بها يسوع والأكثرها مفعمة بالحسّ الإنسانيّ، عنيت مثل السامريّ الصالح. وعلى الرغم من أنّ الاهتمام الرئيسيّ، المثل هو الإجابة على السؤال، "من هو قريبي؟"، إلاّ أنّ هذا الاهتمام يأتي في سياق الكلام على محبّة الله ومحبّة القريب مثل النفس. وبالتالي فإنّ المثل يطرح مجموعة من الأسئلة: ما هي محبّة الله ومحبّة القريب؟ ما هي المحّبة؟ هل محبّة القريب ممكنة فقط، أو نابعة حصرًا، أو تنساب حكمًا من محبّة الله؟ أم أنّ هناك محبّة إنسانيّة لا تستمدّ جذورها بالضرورة من محبّة الله؟

سأحاول الإجابة على هذه الأسئلة في نهاية المحاضرة، لكن في الوصول إلى هناك من الضروريّ قراءة مثل السامريّ الصالح في السياق المباشر له، ومن ثمّ في السياق الأوسع والذي هو رؤية يسوع لخدمته في إنجيل لوقا.

السامريّ الصالح في سياقه المباشر

مثل السامريّ الصالح موجود حصرًا في إنجيل لوقا. السياق المباشر للمثل هو لقاء بين يسوع، وهو في طريقه إلى أورشليم (٩: ٥ – ١٩: ٤٥)، برجل

يهوديّ ناموسيّ (معلّم للشريعة). يخبرنا البشير لوقا أنّ الناموسيّ أتى ليجرّب يسوع سائلاً إيّاه: "ماذا أعمل لأرث الحياة الأبديّة؟"، فيجيبه يسوع: "كيف تقرأ ما هو مكتوب في الناموس؟"، أي كيف تفهم جوهر ما هو موجود في الناموس وممّا يمليه عليك، فيجيب الناموسيّ يسوع: "تحبّ الربّ إلهك من كلّ قلبك ومن كلّ نفسك ومن كلّ قدرتك ومن كلّ فكرك، وقريبك مثل نفسك".

في هذه الإجابة جمع الناموسيّ بين نصّين من الناموس ملخّصًا بهما جوهر الشريعة اليهوديّة. النصّ الأوّل هو من كتاب التثنية ٦: ٤–٥، وهي صلاة يتوجّب على كلّ ذكرٍ يهوديّ تلاوتها مرّتين في اليوم: "إسمع يا إسرائيل، الربّ إلهنا ربّ واحد، فتحبّ الربّ إلهك من كلّ قلبك، ومن كلّ نفسك، ومن كلّ قدرتك". ويضيف الناموسيّ على هذا النصّ الأوّل عبارة "ومن كلّ فكرك". أمّا النصّ الثاني فهو مأخوذ من لاويّين ١٩: ١٨: "لا تنتقم ولا تحقد على أبناء شعبك، بل تحبّ قريبك كنفسك". القريب في سياق النصّ الثاني هو "أبناء شعبك" أي اليهود. لكن في الإصحاح ذاته من كتاب اللاويّين نجد تعريفًا آخر للقريب يتخطّى "أبناء الشعب" ليشمل أيضًا الغرباء في الأرض: "وإذا نزل عندك غريب في أرضكم فلا تظلموه؛ فالوطنيّ منكم يكون لكم الغريب النازل عندكم، وتحبّه كنفسك لأنّكم كنتم غرباء في أرض مصر" (لا ١٩: ٣٣–٣٤). رغم هذا الانفتاح على الغرباء في أرض اليهود، إلاّ أنّ هويّة القريب تبقى محصورة؛ فماذا عن الغرباء خارج أرض اليهود، أو الأعداء الذين يحتلون الأرض؟

الملفت للنظر في قراءة الناموس لجوهر الشريعة هو التشابه مع ما يقوله يسوع عن الوصايا الأعظم في الناموس في إنجيلَي مرقس (١٢: ٢٨–٣٤) ومتّى (٢٢: ٣٧–٤٠)، حينما يُلّخص الشريعة بوصيّتين: "تحبّ الربّ إلهك من كلّ قلبك ومن كلّ نفسك ومن كلّ فكرك. هذه هي الوصية الأولى والعظمى. والثانية مثلها، تحبّ قريبك كنفسك". وينهي يسوع كلامه في إنجيل متّى: "بهاتين الوصيتين يتعلّق الناموس كلّه والأنبياء".

هذا التشابه يطرح سؤالاً تاريخيًّا مهمًّا: هل هذا الفهم لجوهر الشريعة أمر تميّز به تعليم يسوع، أم أنّ هذه الصياغة كانت أمرًا شائعًا ومتداولاً، كما يُظهر كلام الناموسيّ، تبنّاه يسوع؟ سأجيب عن هذا السؤال لاحقًا. لكن لا بدّ من متابعة قراءتنا للمثل في سياقه المباشر.

إجابة الناموسيّ لا غبار عليها: "بالصواب أجبت"، ردّ عليه يسوع. "وإن فعلت هذا فتحيا". لكنّ الناموسيّ، وبهدف تحقيق القصد الذي من أجله أتى إلى يسوع، أي ليجرّبه– وهذا ما تعنيه عبارة "لتبرير نفسه"– سأله: "ومن هو قريبي؟". الواضح من تطوّر الحوار بين الاثنين أنّ تجربة يسوع تكمن في إجابته عن "من هو قريبي؟"، وليس كيف "أرث الحياة الأبديّة؟". تحديد معالم هويّة القريب هي موضوع التجربة، ويبدو أنّ هذا الأمر كان لا يزال موضوع جدل في الأوساط اليهوديّة. ما يريده الناموسيّ من يسوع هو تحديد موقفه من هويّة القريب لأنّ إجابته على هذا السؤال تحدّد قراءته والتزامه بالشريعة، وهو الذي عُرف بمعاشرته للمنبوذين والمهمّشين والخطأة، وصِنْع الشفاءات يوم السبت، ولمس البرص والموتى، ومنح مغفرة الخطايا للخطأة، ضاربًا بعرض الحائط فرائض وأحكام الشريعة ومستلزمات الطهارة.

هنا بالتحديد يضرب يسوع للناموسيّ مثل السامريّ الصالح. والمثل يروي قصّة إنسان كان نازلاً من أورشليم إلى أريحا عبر طريق عُرفت بوعورتها وانحدارها والتي كانت هضابها تحوي مغاور صخريّة يستخدمها قطاع الطرق مخابىء لهم، فوقع هذا الإنسان بين لصوص قاموا بسلبه، فعرّوه وجرجروه وتركوه على الأرض بين حيّ وميت.

من الطبيعيّ للناموسيّ، أو لسامعي هذا المثل، الافتراض أنّ الإنسان هذا كان يهوديًّا. لكنّ المثل يُبقي هويّة الإنسان مبهمة، وهذا الجزء الأهمّ من قوّة وعبقريّة ورسالة المثل. نحن أمام إنسان مطروح على الطريق مجروح بين حيّ وميت لا هويّة له إلا ثيابه. من ثيابهم تعرفونهم. لكن حتّى هذه قد عُرّي منها في المثل، فأضحينا أمام إنسان مجروح بين حيّ وميت عار، بحاجة ماسّة للمساعدة، لا هويّة له سوى إنسانيّته.

فعرض أنّ كاهنًا كان نازلاً على الطريق ورآه، ثمّ تابع سيره على الجانب الآخر من الطريق. وكذلك فعل لاويّ بعدما دنا منه ونظر إليه. تُرى لماذا تحاشى كلّ من الكاهن واللاويّ، تلك الشخصيّتين الممثَّلتَين للتديّن والتقوى وحفظ الشريعة، من تقديم المساعدة لذاك الإنسان؟ هل السبب خوفهما من التنجّس جراء الاحتكاك بجسد ميت خصوصًا أنّ حال الإنسان لم يكن واضحًا أن كان بين حيّ وميت؟ هل السبب خوفهما من أن يكون الإنسان هذا فخًّا نصبه اللصوص للإيقاع بآخرين؟ أم أنّ عُري الإنسان لم يمكّنهما من تحديد هويّته، وما إذا كان من أبناء الشعب أم لا؟ قد يكون واحد من هذه الأسباب أو كلّها عاملاً مهمًّا في تحاشي الكاهن واللاويّ للإنسان الجريح، لكنّ المثل لا يولي هذه الأسباب أيّ اهتمام ما عدا أنّ الكاهن واللاويّ لم يقومَا بتقديم المساعدة لذاك الجريح.

غير أنّ سامريًّا مرّ بالإنسان المطروح على الطريق، فرآه وتحنّن، فتقدّم وضمّد جراحاته وصبّ عليها زيتًا وخمرًا، ثم أركبه دابّته وأتى إلى فندق واعتنى به. وفي الغد لمّا مضى أخرج دينارين وأعطاهما لصاحب الفندق وقال له: إعْتَنِ به، ومهما أنفقت أكثر فعند رجوعي أُوفيك.

لا شكّ أنّ اختيار يسوع لشخصيّة سامريّ تميّز عن الكاهن واللاويّ بتحنّنه على الإنسان الجريح مقدّمًا له المساعدة كان له وقعه المدوّي على الناموسيّ وسامعيّ المثل؛ فالعلاقة بين اليهود والسامريّين تميّزت بالعداوة المتبادلة، ونظرة دونيّة كان اليهود يختزنونها للسامريّين نابعة عن اعتبارهم أنّهم من ذرّيّة الشعوب التي أتى بها الأشوريّون للسيطرة على أرض فلسطين، وبالتالي رباط الاثنين باليهود تشوبه علامات الاستفهام والشكّ. صحيح أنّه كان هناك خلاف بينهما على المكان الحقيقيّ للهيكل (جبل جريزيم أم أورشليم)، إلاّ أنّ السامريّين تشاركوا مع اليهود الإيمان بالله الواحد والكتب الخمس الأولى لموسى (التوراة) والتي توصي بمحبّة الله ومحبّة القريب.

من يعيش خبرة جماعات متعادية يُقدّر ويُثمّن شجاعة يسوع في جعل سامريّ، حقير بمنظار يهوديّ، "غريب الجنس" - بكلمات يسوع عن السامريّ الأبرص الذي طهّره ورجع ليعطي مجدًا لله (لو ٧: ١٨)- يُعرف القريب لناموسيّ يهوديّ بمشاعر التحنّن والرحمة لأيّ إنسان بحاجة إليهما.

القريب لا يمكن أن يُعرف ولا يحدّد بهويّة إثنيّة. القريب يصير ويكون حيثما يُكتشف على دروب الحياة أُناس بحاجة إلى الحنوّ والرحمة وتصنع هذه لهم.

ثم ينهي يسوع مثله بسؤال للناموسيّ: "أيّ من هؤلاء الثلاثة ترى صار قريبًا للذي وقع بين اللصوص؟"؛ فيجيبه الناموسيّ: "الذي صنع الرحمة". لقد فهم الناموسيّ بالعمق ما قصده يسوع في المثل، فلم يجبه "السامريّ"، إنّما "الذي صنع الرحمة". ولهذا دعاه يسوع أن يذهب ويصنع هكذا، أي أن يصنع الرحمة، فيصير قريبًا للآخر، بغضّ النظر عن الهويّة الإثنيّة للآخر.

في مثل السامريّ الصالح يقلب يسوعُ سؤالَ الناموسيّ، "من هو قريبي؟"، رأسًا على عقب، ويقود الناموسيّ بطريقة للإجابة على السؤال الذي هو طرحه بقصد تجربة يسوع لكن بطريقة جديدة لا مكان فيها لهويّة إثنيّة.

جوهر مثل السامريّ الصالح هو التالي:

لا تسأل: من هو قريبي؟

إنّما اسال: كيف أكون قريبًا للإنسان؟

لا تسأل: من هو قريبي؟

إنّما اصنع الرحمة لمن هم بحاجة لها، فيكون لك الآخر قريبًا.

لا تسأل: من هو قريبي؟

لأنّك تكون وتصير قريبًا للآخر- أيًّا كانت هويّته- عندما يكون بحاجة إلى الرحمة وتصنعها معه.

لا تسأل: من هو قريبي؟
إنّما إصنع الرحمة، فتكون للآخر قريبًا، ويكون الآخر قريبًا لك.

السياق الأوسع للسامريّ الصالح

بعد هذه القراءة للمثل في سياقه المباشر لا بدّ من قراءة له في سياقه الأوسع والذي هو رؤية يسوع لخدمته في إنجيل لوقا. ولهذا السبب اخترت التركيز على نصّ من بداية خدمة يسوع يعتبر توجيهًا، ليس فقط في فهم خدمة يسوع في إنجيل لوقا، أمّا أيضًا للكنيسة التي نشأت من بعده والذي يخبرنا عنها لوقا في كتابه الثاني، أعمال الرسل.

بعد معموديّة يسوع (لو ٣: ٢١–٢٢)، وتجربته في البّريّة (لو ٤: ١–١٣)، يخبرنا البشير لوقا عن رجوعه، وبقوّة الروح القدس، إلى بلدته في الناصرة حيث كان قد تربّى. هناك يدخل المجمع حسب عادته يوم السبت، ويُعطيَ سفر أشعيا النبيّ، ثم يقرأ:

"روح الربّ عليّ لأنّه مسحني لأبشّر المساكين، أرسلني لأشفي منكسريّ القلوب، لأنادي للمأسورين بالإطلاق، وللعمي بالبصر، وأرسل المنسحقين في الحرّيّة، وأكرز بسنة الربّ المقبولة" (لو ٤: ١٨–١٩؛ أش ٦١: ١–٢).

ثمّ يطوي السفر ويقول لجميع الذين في المجمع: "اليوم قد تمّ هذا المكتوب في مسامعكم". بهذا القول يؤكّد يسوع لأبناء بلدته أنّ ما وعد به الربّ في أشعيا من تحرير وإعادة إحياء لشعب إسرائيل يتحقّق الآن بشخصه وخدمته؛ فهو الممسوح بروح الربّ في معموديّته، والروح يرافقه في تجربته ويقوده إلى حيث تربّى ليبدأ خدمته من هناك. هو الممسوح المدعوّ ليحقّق خدمة عنوانها تحرير وإطلاق: بشارة للمساكين (أخبارًا سارّة ليس فقط للفقراء بل أيضًا للمهمّشين والمنبوذين والمقصيّين من الشراكة الإنسانيّة)، شفاءًا لمنكسريّ القلوب، مناداة للمأسورين بالإطلاق (أسر الخطيئة والأرواح النجسة)، بصرًا

للعمي (طهارة للبرص، شفاء للمغلوبين، وحياة للموتى)، وإرسالاً للمنسحقين في الحرّيّة، وكرازة بسنة الربّ المقبولة (سنة الإبراء من الديون، سنة فتح اليد لمن هو فقير، والإطلاق والحرّيّة لمن كان عبدًا؛ أنظر تث ١٥: ١–١١).

في كلمات النبيّ أشعيا هي بمثابة إعلان (Manifesto) ورؤية لخدمة يسوع؛ فهو الممسوح المدعوّ لإرساليّة عنوانها تحرير وإطلاق الإنسان من كلّ قيوده دون استثناء. هذه الخدمة عبّر عنها يسوع في أماكن أخرى بعبارة مجيء ملكوت الله. مجيء ملك الله إلى الأرض لتحرير وإطلاق الإنسان. هذا هو الخلاص بالمفهوم اللوقويّ. كلّ الشفاءات، كلّ الأعاجيب، كلّ طرد للشياطين والأرواح النجسة، كلّ مثل، كلّ تعليم في إنجيل لوقا يجب أن يُقرأ ويُفسَّر على أنّه جزء من تحقيق لإعلان الناصرة في تحرير وإطلاق الإنسان.

غير أنّ هذا الخلاص، هذا التحرير والإطلاق للإنسان، لن يقدّم حصرًا لشعب إسرائيل، بل هو الخلاص الذي يقدّمه الله للبشريّة كلّها.

في قصّة الناصرة يسأل المجمع: "أليس هذا ابن يوسف؟"، بمعنى أنّنا نعرف هذا الشخص، ولكنّنا لا نعرف بأيّ سلطان يدّعي أنّه المحقّق لوعد الله بالتقرير والإطلاق، وهذا ما يبرّر الردّ الحادّ ليسوع بالقول:

"على كلّ حال تقولون لي هذا المثل: أيّها الطبيب، إشف نفسك. كما سمعنا أنّه جرى في كفرناحوم، فافعل ذلك هنا أيضًا في وطنك. والحقّ أقول لكم: إنّه ليس نبيّ مقبولاً في وطنه. وبالحقّ أقول لكم إنّ أرامل كثير كنّ في إسرائيل في أيّام إيليّا حيث أُغلقَت السماء مدّة ثلاث سنين وستّة أشهر، لمّا كان جوع عظيم في الأرض كلّها، ولم يرسل إيليّا إلى واحدة منها إلاّ إلى امرأة أرملة إلى صرفت صيدا. وبرص كثيرون كانوا في إسرائيل في زمان أليشع النبيّ، ولم يَطهُر واحدٌ منهم إلاّ نعمان السريانيّ" (لو ٤: ٢٣–٢٧).

الواضح من هذا الكلام أنّ يسوع رأى نفسه على خطى أنبياء العهد القديم

الذين لن يقبلوا بين أبناء وطنهم. لكنّ الأهمّ من ذلك رفضه حصر حنوّ الله ورحمته بشعب إسرائيل، أو اعتبارهم المستفيدين الحصريّين من محبّة الله؛ فالمثلان اللذان يستشهد بهما يسوع هما مثلان على حنوّ الله ورحمته العابرة للاثنين، والمكانة الاجتماعيّة والهويّة الجندريّة (امرأة أمميّة في صرفت صيدا، وأبرص سوريّ).

إنّ وعد الله في أشعيا النبيّ بتحرير إسرائيل وإطلاقه أصبح في خدمة يسوع وعد الله بتحرير وإطلاق الإنسان.

إذا ما نظرنا إلى مثل السامريّ الصالح من هذا السياق الأوسع لخدمة يسوع في إنجيل لوقا لفهمنا لماذا عُرِّي الإنسان المطروح على الطريق بالكامل من دون دلالات على هويّته. نفهم رفض يسوع تعريف الغريب بهويّته الإثنيّة؛ ففهم حرص يسوع على أن تصنع الرحمة لمن هم بحاجة إليها لأنّ الرحمة التي تبلسم الألم، وتكسو العُري، وتحتضن المطروح على دروب الحياة هي أيضًا تحرير وإطلاق للإنسان.

والأهمّ في تعليم يسوع للناموس من خلال مثل السامريّ الصالح هو تحرير الناموسيّ وإطلاقه من قوقعته الاثنيّة الضيّقة، والنظرة التمييزيّة المسبقة في فهمه للقريب. من خلال المثل يدعو يسوع الناموسيّ للتحرّر من ذاته، وتخطيها والخروج لملاقاة آخر. هذه هي بدايات المحبّة.

قد لا يكون يسوع أوّل من صاغ جوهر الشريعة بمحبّة الله والقريب، وقد يكون، أو لا يكون، أوّل من علّم أنّ محبّة القريب هي محبّة الإنسان. لكنّه يتميّز عن اليهوديّة في أنّه جعل هذه النظرة الشاملة للإنسان. وللخلاص الذي قدّمه الله من خلاله، يطبع خدمته وإرساليّته، وإرساليّة الكنيسة التي نشأت من بعده.

محبّة الله ومحبّة القريب

أحد الغاز الوجود البشريّ، من منظاري الشخصيّ للموضوع، يكمن في الطبيعة البشريّة التي نولد فيها؛ فهي طبيعة تتمحور بطبيعتها حول الذات ومحبّة الذات. أريد كلّ شيء لي. ليست صدفة أنّ الرسول بولس أطلق على الخطيئة صفة الشهوة، أو الاشتهاء (رو ٧: ٧)؛ فالشهادة أو الاستشهاد هي تلك الرغبة الجامحة لإشباع الذات، وهي تعبير طبيعيّ لطبيعة بشريّة بطبيعتها تتمحور حول الذات.

المحبّة، وبالتحديد محبّة الله ومحبّة القريب، هي النقيض لطبيعتنا البشريّة، لأنّ المحبّة هي تخطّي الذات؛ فالمحبّة لا تعني بالضرورة إبطال الذات أو نسيانها، إنّما القدرة على تخطّيها.

في هذا السياق، فإنّ محبّة الله هي القدرة على تخطّي ذاتيّتي ودعوة الله أن يسكن محور دائرة حياتي لأعيش في محيط تلك الدائرة وأدور في فلكها. محبّة الله هي الاستسلام الطوعيّ للذات البشريّة لمشيئة غير الذي ولدت فيه وتعوّدت عليه. هذا الاستسلام لا يمكن أن يكون مجتَزءًا، فهو استسلام من كلّ القلب، والنفس والقدرة والفكر. محبّة الله هي الامتلاء بكيان جديد.

محبّة القريب مثل النفس شبيهة بمحبّة الله. هي القدرة على تخطّي ذاتيّتي، وجعل الآخر في محور الدائرة. هذا ما فعله السامريّ، وهذا ما طلبه يسوع من الناموسيّ عندما قال له: "إذهب واصنع هكذا". عندما يستطيع الإنسان أن يتخطّى ذاتيّته، عندها يكون قادرًا أن يحبّ الله ويحبّ قريبه مثل نفسه.

هذا الفهم للمحبّة تعلّمناه واختبرناه في تراثنا المسيحيّ من محبّة الله لنا بيسوع المسيح الذي إذا كان في صورة الله، أخلى نفسه آخذًا صورة عبد، صائرًا في شبه الناس (فيل ٢: ٤-٧). لم ينظر إلى ما هو لنفسه، بل إلى ما هو لآخرين أيضًا. المحبّة هي تخطّي الذات من أجل ملاقاة الآخر.

لكنّ فهمنا المسيحيّ للمحبّة نابع من معرفتنا أنّ الله أحبّنا أوّلاً. هو الذي

يعلّمنا المحبّة الحقيقيّة. ولأنّه هو أحبّنا أوّلاً نحبّه أيضًا، ونحبّ الإنسان الآخر الذي هو أحبّه وبذل نفسه من أجله. محبّتنا لله لا تكتمل إذا لم تكن مقرونة بمحبّتنا لمن أحبّه الله. من هنا القول أنّ محبّة القريب تستمدّ جذورها من محبّة الإنسان لله.

ثمّة من يسأل: هل المحبّة الإنسانيّة، التي لا تعرف الله، أو اختبرت محبّة الله بالمسيح يسوع، ممكنة. الجواب بسيط: نعم، ممكنة. لكنّ الفرق بين المحبّة الإنسانيّة والمحبّة المسيحيّة أيضًا بسيط وواضح. المحبّة الإنسانيّة هي خيار وقد لا يختاره الإنسان. أمّا محبّة القريب كالنفس والنابعة من محبّة الإنسان لله والنابعة من إدراك المعرفة أنّ الله أحبّنا أوّلاً، هي واجب، وليست خيارًا، لكلّ من دعاهم يسوع أن يكونوا أتباعه على هذه الأرض.

المحبّة هي تحرير الإنسان وإطلاقه من ذاتيّته. المحبّة هي مرادف للرحمة؛ فهي لا تبحث عَمَّن يجبّ أن تحبّ، إنّما تلتقي الله والإنسان على دروب الحياة، وتدعوهما إلى أن يجعلاَ لهما مسكنًا داخل الذات البشريّة.